كنوز الحكمة
أيوب 3:32-1:31

- **الدرس الخمسمئة والسابع والستون**

نواصلُ تأملاتنا في سفر أيوب من العهد القديم وقد وصلنا الى الفصل الحادي والثلاثين منه. رأينا في الدرس الماضي أن أيوب كان يعاني من مرض الكبرياء والاعتداد بالذات، وقد استخدم أيوب ضمير المتكلم حوالي اثنتين وخمسين مرة في الفصل التاسع والعشرين فقط. فبالرغم من كل ما اصابه من آلام إلا أنه كان ممتلئاً بالغرور والكبرياء والبر الذاتي، انهمك في ذاته وغرق في أعماق نفسه. وأصدقاؤه فشلوا في اكتشاف أصل الداء ومعرفة المشكلة الحقيقية في حياته، لأنهم لم يفهموا ايوب ولا أنفسَهم وإلههم. وبالرغم من مداخلهم المختلفة في حديثهم مع أيوب إلا أنهم وصلوا الى استنتاج واحد أن كثرة البلايا تأتي من كثرة الخطايا. وبدلاً من أن يساعدوا أيوب على الحكم على ذاته، قادوه الى التكبر والاعتداد بالذات عن طريق المدافعة عن نفسه. ثم استمعنا الى أيوب يعود الى الأيام الخوالي، عندما كانت الأمور تسير معه على خير ما يرام، وبالرغم من انتفاخه إلا أنه يذكر إحسانات الله معه. كان أيوب غنياً مزدهراً وكلُ ما يلمسه يتحول ذهباً. كما كان رجلاً ذا تأثير هائل على من هم حواليه. ولقد هابه وأحبه الجميع إذ كان يساعد المحتاجين ويعيل المسنين ويعتني بالأرامل والمعتازين. ولكن الذي خاف منه حصل معه ووقعت القنبلة على عشه فأطاحت به. خاف أن يذهب عنه كل الغنى والجاه وهذا ما حصل فعلاً. سقط ولم يضع أحدٌ وسادة تحته، ولا حتى أصدقاؤه. اخذ يعظم نفسه فقال: لبست البر فكساني كجبة، ولم يعترف بشيء من نقائصه وأخطائه، لذلك فهو يحتاج الى توبةٍ قلبية صادقة. في الفصل الحادي والثلاثين أخذ يشكي همومه ومصائبه الحاضرة ويلوم الله. كانت مشكلته الكبرياء والاعتداد بالذات، والكبرياء كالسرطان إذا ما استأصلناه انتشر في كل أنحاء الجسم.

نأتي الى الفصل الحادي والثلاثين من سفر أيوب. يـُنهي هذا الفصل حديث أيوب المطوَّل في دفاعه عن نفسه. يا لها من مباراة حاميةِ الوطيس تبارز فيها أصدقاء أيوب الثلاثة ضد أيوب. كانوا يحاولون إجباره على الاعتراف بخطيته السرية بحسب اعتقادهم. ومبدأهم كما رأينا أن كثرة بلايا أيوب أتت من كثرة خطاياه. وبعد ثلاث جولات من المباحثات والمناقشات والتي لم تسفر عن شيء، استسلموا ولم يعودوا يتحدثون بدليل أن صوفر لم يجب على أيوب، الذي أسهب في حديثه. وصوفر لم يصمت لأنه اقتنع بصحة كلام أيوب بل بأن أيوب لا يمكنه أن يقتنع. وهكذا في هذا الفصل الحادي والثلاثين يحاول أيوب أن يبرئ ساحته أمام القضاء الإلهي عن طريق استنزال عقوبة السماء عليه إن كان قد فعل خطيةً من الخطايا المذكورة هنا، وهو يؤكد أن ما يزرعه الإنسان فإياه يحصد أيضاً. كما أن أيوب كان يحاول أن يبرئَ نفسه عن طريق ملامةِ الله. فهو يعتقد أن الله مخطئ في معاقبته هكذا، وهذا هو الموقف الخاطئ الذي يمكن أن نتخذه، عندما نبرر أنفسنا، عندها لا نحصد سوى الغضب. لذا من الحكمة بدلاً من ذلك أن نحكمَ على أنفسنا لنحظى بتبرير الله. كتبَ أحدُهم في جريدة نيويورك تايمز: مهمٌ جداً أن نتمتع بقدرة ارتداء ثوب التواضع في بعض مجالات الأعمال العامة، وفي مجالات السياسة والرياضة. وعلى من يحتقر هذا الرداء أن يتحمل النقمة والإهانة من الجموع، فنحن نحب أبطالنا المتواضعين. الكبرياء يا صديقي هي الصفة التي تلتصق بالبشرية جمعاء، فيا ليتنا نتعلم كيف نأتي باتضاع أمام الله بكل صدق وبلا رياء. هذا ما يعلمنا إياه سفر أيوب. أمام الله أخي الكريم لا يمكنك أن تبني دفاعك على أساس صلاحك، فالرب يحطم كل متعاظم وكلَ غطرسة، فيوم الرب على كل النفوس المتكبرة. لذا فإنه من الحكمة أن نأخذ الموضع المتضع أمام الله وأن ننحني تماماً في حضرته. فعندما نتضعُ يتمسك بنا الله لنرتفع. وهناك للأسف أناسٌ يأتون ويطلبون خلاص الرب ولكن بلا انكسار في القلب ولا اتضاع في النفس. وإذا تجولت في

الكتاب المقدس فستجد أن الروحَ المنكسرة يقدرها الله ويطلبها في الإنسان. مثلاً يقول المرنم في المزمور الرابع والثلاثين: قريبٌ هو الرب من المنكسري القلوب ويخلص المنسحق الروح. كذلك يقول إشعياء النبي: " لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ الْعَلِيُّ الْمُرْتَفِعُ، سَاكِنُ الأَبَدِ، الْقُدُّوسُ اسْمُهُ: «فِي الْمَوْضِعِ الْمُرْتَفِعِ الْمُقَدَّسِ أَسْكُنُ، وَمَعَ الْمُنْسَحِقِ وَالْمُتَوَاضِعِ الرُّوحِ، لأُحْيِيَ رُوحَ الْمُتَوَاضِعِينَ، وَلأُحْيِيَ قَلْبَ الْمُنْسَحِقِينَ " (إش 15:57). قد نظن أن مسألة الكبرياء والروح المتضعة تخص الرياضيين والمشهورين والسياسيين ولكننا لا نفطن الى أنها تخص بالأولى المؤمنين، لا سيما أولئك الذين يعملون في حقل الرب. فمنهم من يتناسى أنه مجرد خادم للرب، وتراه يتفاخر حتى بخدمته وإنجازاته للسيد، الذي أخلى نفسه آخذاً صورةَ عبد مقدماً لنا مثالاً حياً وعظيماً في التواضع. وايوب هنا كان يربت على كتف نفسه مهنئاً ذاته على كل محاسنه وأخلاقه الحميدة وأعماله الصالحة وبالتالي يستحزن الجميع على حالته الحاضرة. وسنرى في نهاية الفصل أنه بقي متمسكاً ببره الذاتي مدعياً الصلاح والكمال. صديقي، إذا أردت أن تأتي الى الله فلا يمكنك أن تأتي اليه بصلاحك وحسناتك ومحاسنك وأخلاقياتك، بل تأتي اليه بالروح المنكسرة. تعال بنا أخي وصديقي نتغنى مع الشاعر ونقول: أروم قرباً منك يسوع، أجثو لديك بروح الخشوع، بين يديك ضمَّ فتاك، فإن أمني جراحُ حشاك، فإن روحي المنسحقة أغلى لديك من المحرقة، ما ليَ برٌ ولا صلاح بل كلُ بري بتلك الجراح.

نقرأ من الفصل الحادي والثلاثين من أيوب من العدد الأول وحتى الثاني عشر..

1عَهْدًا قَطَعْتُ لِعَيْنَيَّ، فَكَيْفَ أَتَطَلَّعُ فِي عَذْرَاءَ؟ 2وَمَا هِيَ قِسْمَةُ اللهِ مِنْ فَوْقُ، وَنَصِيبُ الْقَدِيرِ مِنَ الأَعَالِي؟ 3أَلَيْسَ الْبَوَارُ لِعَامِلِ الشَّرِّ، وَالنُّكْرُ لِفَاعِلِي الإِثْمِ؟ 4أَلَيْسَ هُوَ يَنْظُرُ طُرُقِي، وَيُحْصِي جَمِيعَ خَطَوَاتِي؟ 5إِنْ كُنْتُ قَدْ سَلَكْتُ مَعَ الْكَذِبِ، أَوْ أَسْرَعَتْ رِجْلِي إِلَى الْغِشِّ، 6لِيَزِنِّي فِي مِيزَانِ الْحَقِّ، فَيَعْرِفَ اللهُ كَمَالِي. 7إِنْ حَادَتْ خَطَوَاتِي عَنِ الطَّرِيقِ، وَذَهَبَ قَلْبِي وَرَاءَ عَيْنَيَّ، أَوْ لَصِقَ عَيْبٌ بِكَفَّيَّ، 8أَزْرَعُ وَغَيْرِي يَأْكُلُ، وَفُرُوعِي تُسْتَأْصَلُ. 9«إِنْ غَوِيَ قَلْبِي عَلَى امْرَأَةٍ، أَوْ كَمَنْتُ عَلَى بَابِ قَرِيبِي، 10فَلْتَطْحَنِ امْرَأَتِي لآخَرَ، وَلْيَنْحَنِ عَلَيْهَا آخَرُونَ. 11لأَنَّ هذِهِ رَذِيلَةٌ، وَهِيَ إِثْمٌ يُعْرَضُ لِلْقُضَاةِ. 12لأَنَّهَا نَارٌ تَأْكُلُ حَتَّى إِلَى الْهَلاَكِ، وَتَسْتَأْصِلُ كُلَّ مَحْصُولِي.

يؤكد أيوب بأنه عاش حياةً طاهرة، ولم يكن شهوانياً. قطع عهداً مع عينيه ألا ينظر الى الشر، وذلك لأن العين هي سراجُ الجسد فإذا كانت عينك بسيطة يقول الرب، فجسدك كلُّه يكون نيــراً. حواء وداود وغيرُهما سقطوا حينما نظروا واشتهوا، والمسيح قال: من نظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه. فماذا تكون النتيجة حين ينحرف القلب نحو الغرائز؟ يقول في عدد 2: " وَمَا هِيَ قِسْمَةُ اللهِ مِنْ فَوْقُ، وَنَصِيبُ الْقَدِيرِ مِنَ الأَعَالِي؟ ". هذا يعني أن قصاص الله أكيد على الشر. ويقول أيضاً: " أَلَيْسَ الْبَوَارُ لِعَامِلِ الشَّرِّ، وَالنُّكْرُ لِفَاعِلِي الإِثْمِ؟ ". البوار أو البلوى لفاعل الإثم. إن الله يرى حتى نظراتنا وتصورات قلوبنا ويجازي كل واحد كما يكون عمله. وما زال أيوب يشير بإصبعه الى الآخرين بأنهم ارتكبوا مثل هذه الخطايا أما هو فمنزه عنها، ويطلب الدينونة لمثل هؤلاء. لم يستطع أن يرى ضرورة دينونته الشديد هذه بينما هو رجل مستقيم. أظن أن أيوب لوى ذراعه من كثرة الربت على كتفه. ويستمر في مدح استقامته ويقول: " أَلَيْسَ هُوَ يَنْظُرُ طُرُقِي، وَيُحْصِي جَمِيعَ خَطَوَاتِي؟ إِنْ كُنْتُ قَدْ سَلَكْتُ مَعَ الْكَذِبِ، أَوْ أَسْرَعَتْ رِجْلِي إِلَى الْغِشِّ، لِيَزِنِّي فِي مِيزَانِ الْحَقِّ، فَيَعْرِفَ اللهُ كَمَالِي ". الله يفحص أصغر الأمور ويراها ويحصي جميع الخطوات. لاحظ أنه يشبه الكذب بإنسان صديق يسلك المرء معه، وكم من أناسٍ يصادقون الكذب. وما زال يصر على التمسك ببره الذاتي أمام الله، حتى أنه يطلب من الله أن يزنــه بميزانه ليعرفَ كمالــه. ولكننا إذا وُزنا بموازين الله فسنوجدُ ناقصين، فالله إلــه عليم وبه توزنُ الأعمال ولا يمكن لحي أن يتبرر قدامه. يقول في عدد 7 وما يليه: " إِنْ حَادَتْ خَطَوَاتِي عَنِ الطَّرِيقِ، وَذَهَبَ قَلْبِي وَرَاءَ عَيْنَيَّ، أَوْ لَصِقَ عَيْبٌ بِكَفَّيَّ. أَزْرَعُ وَغَيْرِي يَأْكُلُ، وَفُرُوعِي تُسْتَأْصَلُ. «إِنْ غَوِيَ قَلْبِي عَلَى امْرَأَةٍ، أَوْ كَمَنْتُ عَلَى بَابِ قَرِيبِي، فَلْتَطْحَنِ امْرَأَتِي لآخَرَ، وَلْيَنْحَنِ عَلَيْهَا آخَرُونَ. لأَنَّ هذِهِ رَذِيلَةٌ، وَهِيَ إِثْمٌ يُعْرَضُ لِلْقُضَاةِ ". تكلم أيوب عن الغش والتحايل واستنزل العقاب على نفسه إذا كان قد فعل ذلك. كما تحدث عن

خطية الزنا وأنها تستوجب القضاء. وكلُ ما قالـه كان صحيحاً وأيوب لم يكن يرتكب مثلَ هذه الخطايا، ولكنه كان يعاني من مرض الكبرياء، كانت هذه اللطخةَ السوداء في حياته. لقد قاده أصدقاؤه الى مزيد من الدفاع عن النفس البر الذاتي. صديقي، ليحمنا الله من خطية الكبرياء الشنيعة التي تطفئ شهادةَ المؤمن وتجعل الكنيسة فاترة بل باردة. صديقي المسيح خلصنا وبررنا أمام الله، ولكن مهما وصلنا من كمال على هذه الأرض فلن نصل الى مقاييس الله أبداً.

نتابعُ التأملات في الفصل الحادي والثلاثين من أيوب إذ نقرأ من الآية الثالثة عشرة وحتى الثالثة والعشرين..

13إِنْ كُنْتُ رَفَضْتُ حَقَّ عَبْدِي وَأَمَتِي فِي دَعْوَاهُمَا عَلَيَّ، 14فَمَاذَا كُنْتُ أَصْنَعُ حِينَ يَقُومُ اللهُ؟ وَإِذَا افْتَقَدَ، فَبِمَاذَا أُجِيبُهُ؟ 15أَوَلَيْسَ صَانِعِي فِي الْبَطْنِ صَانِعَهُ، وَقَدْ صَوَّرَنَا وَاحِدٌ فِي الرَّحِمِ؟ 16إِنْ كُنْتُ مَنَعْتُ الْمَسَاكِينَ عَنْ مُرَادِهِمْ، أَوْ أَفْنَيْتُ عَيْنَيِ الأَرْمَلَةِ، 17أَوْ أَكَلْتُ لُقْمَتِي وَحْدِي فَمَا أَكَلَ مِنْهَا الْيَتِيمُ. 18بَلْ مُنْذُ صِبَايَ كَبِرَ عِنْدِي كَأَبٍ، وَمِنْ بَطْنِ أُمِّي هَدَيْتُهَا. 19إِنْ كُنْتُ رَأَيْتُ هَالِكًا لِعَدَمِ اللِّبْسِ أَوْ فَقِيرًا بِلاَ كِسْوَةٍ، 20إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي حَقْوَاهُ وَقَدِ اسْتَدْفَأَ بِجَزَّةِ غَنَمِي. 21إِنْ كُنْتُ قَدْ هَزَزْتُ يَدِي عَلَى الْيَتِيمِ لَمَّا رَأَيْتُ عَوْنِي فِي الْبَابِ، 22فَلْتَسْقُطْ عَضُدِي مِنْ كَتِفِي، وَلْتَنْكَسِرْ ذِرَاعِي مِنْ قَصَبَتِهَا، 23لأَنَّ الْبَوَارَ مِنَ اللهِ رُعْبٌ عَلَيَّ، وَمِنْ جَلاَلِهِ لَمْ أَسْتَطِعْ.

كان أيوب ربَ عمل وقد أعطى جميع من هم تحته حقوقهم حتى العبيد، وإلا: "مَاذَا كُنْتُ أَصْنَعُ حِينَ يَقُومُ اللهُ؟ " يقول أيوب. ويؤكد بأن الله خالقُ الجميع لذلك يرفض بشدة أن يكون قد استعمل القسوة مع العامل المسكين لأنه صاحبُ رأس المال، أو أن يكون قد غفل عن الأرملة، أو أكل كسرةَ خبز واحدة ولم يتقاسمها مع اليتيم. بل منذ حداثته رعاه كأب. وإن كان قد رأى أحداً مشرفاً على الهلاك من العُري أو مسكيناً من غير كساء فقد كان يقدم لـهم المعونة فوراً. ويقول: إن كان قد رفع يده ضد اليتيم مستغلاً نفوذَه في القضاء فليسقط عضدُه من كتفه ولتنكسر ذراعُه من قصبتها، لأنه يرتعب من نقمة الله ولم يكن باستطاعته أن يواجه جلالـه. نعم، لربما يكون أيوب قد فعل كلَ هذه الإحسانات إلا أنه هنا كان يتفاخر بها ليبرر نفسه. وكأن اللهَ كان مخطئاً في ما اصاب أيوب الكامل، حسب رأيه. يا ليتنا نأتي الى المكان الذي فيه نستطيع أن نحمدَ اسم الرب ونرى أنفسنا كالتراب أمامه.

عدد 29 و30 من الفصل الحادي والثلاثين: " إِنْ كُنْتُ قَدْ فَرِحْتُ بِبَلِيَّةِ مُبْغِضِي أَوْ شَمِتُّ حِينَ أَصَابَهُ سُوءٌ. بَلْ لَمْ أَدَعْ حَنَكِي يُخْطِئُ فِي طَلَبِ نَفْسِهِ بِلَعْنَةٍ ". لم يكن أيوب يشمت ببلايا غيره ولم يكن يردُّ الإساءة بالإساءة. عدد 33 – 36: " إِنْ كُنْتُ قَدْ كَتَمْتُ كَالنَّاسِ ذَنْبِي لإِخْفَاءِ إِثْمِي فِي حِضْنِي. إِذْ رَهِبْتُ جُمْهُورًا غَفِيرًا، وَرَوَّعَتْنِي إِهَانَةُ الْعَشَائِرِ، فَكَفَفْتُ وَلَمْ أَخْرُجْ مِنَ الْبَابِ. مَنْ لِي بِمَنْ يَسْمَعُنِي؟ هُوَذَا إِمْضَائِي. لِيُجِبْنِي الْقَدِيرُ. وَمَنْ لِي بِشَكْوَى كَتَبَهَا خَصْمِي، فَكُنْتُ أَحْمِلُهَا عَلَى كَتِفِي. كُنْتُ أُعْصِبُهَا تَاجًا لِي ". لم يكن أيوب ليخفي خطيته حسب قولـه بل يقول: إن كنتُ قد كتمتُ آثامي كبقية الناس طاوياً ذنوبي في حضني، رهبةً من الجماهير الفقيرة وخوفاً من إهانة العشائر، وصمتُّ واعتصمت داخل الأبواب، فمن لي بمن يسمعني؟ تـرى ما هي الخطايا التي تكتمها في قلبك؟ هل هي حبُ الذات أم الشهوة الردئية أم الطمع أم البخل أم القسوة أم الزنا؟ أنا لا أريد أن أعرفها ولكن يوجد شخص يحب أن يسمعك تعترفُ بها أمامه، إنه الله المحب الذي إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرَنا من كل إثم.

ثم يقول: هوذا إمضائي، هوذا توقيعي على شكواي ويطلب المحاكمة وينتظر الحكم، وقد كان على استعداد لأية شكوى من الله ضده. ليت خصمي يكتب شكواه ضدي فأحملها على كتفي وأضعها تاجاً لي وكنت أقدم لـه حساباً على كل ما أعمل وأدنو منه كما أدنو من أمير. في واقع الأمر يا صديقي، كان أيوب هنا يبرر ذاته. كان متأكداً من براءته، مدافعاً عن قضيته ومستعداً لتقديم حساب عن كل خطوة في حياته. كان متمسكاً ببره الذاتي بل ويظن أن الله خصمُه. كان باراً في عيني نفسه ولكنه لم يكن باراً في عيني الله. الجميع راغوا ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد. ترى كيف ترى نفسك أمام الله؟ هل تفتخر بإنجازاتك وحسبك ونسبك واصلك وفصلك وصلاحك وبرك الذاتي، أم أنك تتضع أمامه معترفاً بفضله عليك وفوق كل شيء معترفاً بأنك خاطئ لا تستحق إحسانه. تأكد بأننا لا نستطيع أن نتاجر مع الله

بتكافؤ ومساواة فسنخسر حتماً، لذا علينا أن نأتي اليه بروح منكسرة والقلب المنكسر لا يمكن لله أن يحتقره بل يثمنه جداً. تعال بنا نحني الرؤوس أمام من أحبنا وأسلم نفسه لأجلنا لـه المجد والكرامة والعظمة من الآن والى الأبد آمين.